اللغة والعلوم الحديثة في مشروع الحجوي لإصلاح التعليم: دراسة مقارنة

Language and modern sciences in the Al-Hajwi Education Reform Project: A comparative study

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: نورالدين أحميان- AHMIANE Noureddine ص287- 301
الدرجة والعنوان المهني: باحث في سلك الدكتوراه- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس (المغرب) /البريد الإلكتروني: ahmiane@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2020/06/20 تاريخ المراجعة: 2020/07/05 تاريخ القبول: 2020/07/18

الملخص: قدم محمد بن الحسن الحجوي مشروعا لإصلاح القطاع التعليمي بالمغرب خلال القرن العشرين، قائم على عدة أركان، كان أهمها الاهتمام بالعلوم الحديثة، ولكون هذه العلوم هي علوم غربية وجديدة على المجتمعات العربية؛ فكان تعلم اللغات الأجنبية يشكل مدخلا أساسيا لها وشرط لتحصيلها، وهو ما جعله يدعو إلى تعلم هذه اللغات، حتى تحقق البلاد نهضتها الفكرية، وبالموازاة مع تعلم هذه اللغات، حثّ على التمسك باللغة العربية التي تمثل أساس الهوية المغربية الإسلامية. بمعنى أنه دعا إلى الانفتاح على الغرب؛ لكن في نفس الوقت التمسك باللغة والثقافة العربية حتى لا يفقد المغاربة هويتهم؛ فكان الانفتاح على أوروبا ضرورة تدعو إليها الحاجة، لعدم وجود علماء ضالعين في العلوم العصرية في العالم العربي، وافتقاده إلى مؤلفات في هذه العلوم، واختصاص الغرب بها. وهذه الدعوات التي قدمها للانفتاح على اللغات الأجنبية والأخذ بالعلوم العصرية جاءت في إطار مشرع إصلاحي شامل قدمه الحجوي انطلاقا من موقعه كنائب للصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف، وهذا التوجه الذي عبر عنه الرجل جعله يدخل في صراع فكري مع عدد من المفكرين الذين كان لهم توجه مخالف له في مسألة الإصلاح وشروطه، وآخرين تقاسموا معه نفس التوجه سواء داخل المغرب أو من خارجه.

الكلمات المفتاحية: الحجوي؛ الإصلاح؛ اللغات؛ العلوم الحديثة.

Abstract: Muhammad ibn al-Hasan al-Hajwipresented a project to reform the educationalsector in Moroccoduring the twentiethcentury, based on severalcharacteristics, the most important of whichwasinterest in modern science, and becausethese sciences are Western and new sciences for Arabsocieties, learningforeignlanguageswas an essential input for them and a

condition for theirachievement, whichiswhatmakesthem call to Learntheselanguages, until the country achievesitsintellectual renaissance. This parallelwith the learning of foreignlanguages, urged to stick to the Arabiclanguage, whichis the basis of the MoroccanIslamicidentity. In the sensethathecalled for openness to the West, but at the same time, training in language and culture sothatMoroccans do not losetheiridentity, soopenness to Europe was a necessity, due to the lack of scientistsinvolved in modern science in the Arab world and itslack of literature in these sciences, and the West'sspecialization in these sciences .. And these calls he made to open up to foreignlanguagesand the introduction of modern science, whichcomes in the framework of a comprehensivereformprojectpresented by Al-Hajwifromhis position as deputy to the Grand Ministry in the Ministry of Science and Knowledge. This approachexpressed by the man made him enter into an intellectual struggle with a number of thinkerswhohadadifferent orientation towardshim in the reform, and othersshared the same direction withhim, whetherinside or outsideMorocco.

Key words: Al-Hajwi; Al-Islah; Languages; Modern Sciences.

مقدمة: ظهرت مع بداية خضوع المغرب للحماية، كوكبة من رجال الفكر التي انصب اهتمامها حول البحث عن سبل تجاوز البلاد لهذه الحالة؛ ورأى قسم من رجال الإصلاح في المغرب أن مواجهة السيطرة الإمبريالية يكمن في الانفتاح على الغرب، والأخذ بأسباب تقدّمه، فيما كان فريق آخر يدعو إلى عكس ذلك، مما أدى إلى ظهور صراع بين هذه الشخصيات حول سبل مواجهة الحماية، ومن بين هذه الوسائل التي تم التركيز عليها التعليم.

ومن أهم رجال الإصلاح الذين ركزوا على مسألة التعليم محمد بن الحسن الحجوي؛ الذي ألف عددا غير يسير من المؤلفات والمقالات التي تدعو إلى إصلاح التعليم المغربي حتى يتسنى للبلاد تكوين أطر قادرة على قيادتها، كما أنه خلال فترة توليته منصب مندوب الصدارة العظمى في المعارف قدم مشروعا لإصلاح القطاع، وقد احتلت فيه اللغة وترجمة المؤلفات الأجنبية إلى العربية حيزا مهما نظرا لوعيه بأهمية لغة التدريس، وخاصة أهمية اللغات الحية في التعليم. وهو الأمر الذي جعله يصطدم مع بعض رجال الإصلاح من جهة ورجال المخزن من جهة ثانية؛ الذين ظلت رؤيتهم تتعارض مع ما قدمه الرجل.

وتهدف هذه المقالة إلى إيضاح نظرة الحجوي إلى اللغات الأجنبية والعلوم العصرية، والسبب الكامن وراء اهتمامه بها؛ فمن هو محمد بن الحسن الحجوي؟ وما المكانة التي احتلتها اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة في مشروعه الإصلاحي؟

1- لمحات عن شخصية الحجوي: ولد محمد بن حسن الحجوي الثعالبي بفاس يوم رابع رمضان 1291هـ الموافق لـ22 سبتمبر 1874م، وهو من قبيلة حجاوة التي كانت مستقرة في الجزائر، وانتقلت إلى المغرب أيام حكم السلطان أبي الحسن المريني، وينتمي إلى أسرة عالمة ومتفتحة مما سيكون له أثر إيجابي على شخصيته.

ترجم الحجوي لنفسه في الكثير من كتبه، كما هو الشأن مثلا في "أساس التهذيب الإسلامي"، حيث ركز في ترجمته بشكل كبير على المراحل الأولى من حياته، وعن ذلك يقول: «أذكر هذه الحلقة من حياتي، ويعلم ما أقصده من ذكرها كل من له إلمام بفن التراجم، هذه الحلقة التي يغفلها كثير من الباحثين والمؤلفين منا؛ فتضيع بإهمالها أهم أطوار حياة الرجال، ويتعذر تعليل كثير من أحوالهم، يأتون في عملهم هذا بالنتيجة، ويتركون المقدمات لأن حياة الإنسان كلها إنما هي نتيجة ذلك الطور القصير، طور الطفولة ومرآة ينطبع فيها كل حين أثر تربيته الأولى والمدرسة الأولى»[1].

تلقى الحجوي تعليمه الأولي على يد جدته من أبيه التي قامت بتربيته وتلقينه أولى المعارف؛ «فكانت أفعالها وأخلاقها كلها دروسا عملية علمية تهذيبية أتلقاها عنها، والفكر فارغ من غيرها؛ فكانت كنقش في حجر...؛ فمرآة أخلاقها وأعمالها في الحقيقة أول مدرسة ثقفت عواطفي، ونفثت في أفكاري روح الدين والفضيلة»[2]، ثم أخذ بعد ذلك على والده دروسا في العقائد السنية وفي الفقه والتاريخ والسير.

ولما بلغ سبع سنوات أدخله والده كُتّابا خصوصيا لتعلم القرآن وتلقي الدروس في العقائد والنحو، وبعد ذلك انتقل إلى كُتّاب عمومي؛ فأكمل فيه حفظ القرآن الكريم وتعلم الإعراب، وفي سنة 1307هـ/1889م دخل القرويين ليتلقى الدروس على شيوخ هذا الجامع، وقدترجم لهم في بعض مؤلفاته مثل: "العروة الوثقى والفكر السامي"، ومنذ سنة 1316هـ/1898م أصبح يُلقي الدروس في القرويين بعد أن أذن له بعض شيوخه.

أصبح الحجوي ابتداء من سنة 1317هـ/1899 يمارس التجارة إلى جانب التدريس؛ فمزج بذلك بين العلم والعمل، كما تقلد أيضا وظائف رسمية إلى جانب تعاطيه للتجارة التي كان يرى فيها مستقبل الدول التي ستراهن عليها[3]، وابتداء من سنة 1318هـ/1900 وُظف عدلا في صوائر دار المخزن بمكناس، ثم تمت ترقيته في سنة 1320هـ/1902م؛ فأصبح أمين ديوانة وجدة، ولا شك أن هذه الترقية كان وراءها حسن عمله وتدبيره للأمور.

وتمت ترقيته مرة أخرى؛ فأضيف إليه وظيف مفتش الجيش في وجدة، وكان ذلك في سنة 1321هـ/1903م فأصبح «نائبا عن وزير المالية في أمور الجيش المالية، وعن وزير

الحرب فيما يرجع إلى الأسلحة والذخائر الحربية، وما إلى ذلك (...)، وبمجرد استلامي للوظيف أخذت في التفتيش والضبط وإسقاط كثير مما كان زائدا في قوائم الجيش»[4]. وهكذا يتضح لنا عمل الحجوي على إصلاح أمور الجيش في وجدة؛ فالإصلاح كان جزءا من شخصية الرجل، إذ حاول إصلاح كل ما كان تحت يده وتصرفه، لذلك ستتم ترقيته مرة أخرى ليصبح نائبا للسلطان عبد العزيز في الحدود المغربية الجزائرية، وتنظيم الجيش لمراقبة الحدود وحراستها.

بعد إعفائه من مهامه السابقة سنة 1323هـ/1905م، سيعود إلى فاس ليتفرغ للعلم والمعرفة، هذا قبل أن يعود مرة أخرى إلى شغل المناصب المخزنية بتعيينه سنة 1330هـ/1912م نائبا للصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف، وكما كان الشأن بالنسبة للجيش الذي عمل على إصلاح أموره لما كان مفتشا للجيش في وجدة، عمل أيضا على إصلاح أمور التعليم في المغرب، وفي ذلك يقول: «وفي مدتي انفتحت عدة مدارس ابتدائية بالمدن المغربية بعد خلوها منها، وباشرت إدخال العربية والدروس الدينية والقرآن العظيم لها، وبسبب ذلك حصل الإقبال على التعليم، وامتلأت المدارس شيئا فشيئا، وانتشرت في عموم المملكة حتى البوادي»[5]. ثم عمل سنة 1332هـ/1914م على تنظيم وإصلاح التعليم بالقرويين عن طريق ما سمي بالمجلس التحسيني لإصلاح أوضاع التعليم بالقرويين[6]، فلم يكن «لفظ نظام أو تنظيم يعرف له المعنى المقصود هناك، ولا كان يوجد لعلماء ذلك المعهد مرتب أو ترتيب حتى فاجأتهم بذلك»[7]، لكن رغم كل هذه الأعمال والإصلاحات التي أشرف عليها، تم إعفاؤه من هذه الوظيفة في سنة 1332هـ/1914م؛ فعاد إلى مسقط رأسه (فاس) مرة أخرى لممارسة التعليم والتأليف، والعمل في التجارة التي كانت تستهويه كما كان الشأن بالنسبة لوالده.

عاد مرة ثانية إلى نيابة الصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف في سنة 1339هـ/1921م، وعمل في هذه الفترة على تفقد المدارس من حيث العلوم العربية والدينية، وفي أثناء ذلك لم يكن يتوقف عن الدراسة والتوسع في العلوم، واستمر في هذه الوظيفة لمدة عشرين سنة، أي إلى غاية 1358هـ/1939م، وهو ما مكنه من معرفة النظام التعليمي وأحواله، ومقارنته مع النظام التعليمي الذي كانت سلطات الحماية قد شرعت في تطبيقه بالمغرب، مما مكنه من وضع مشروع إصلاحي لتحسين أوضاع التعليم بالمغرب.

بعد إعفائه من وزارة العلوم والمعارف للمرة الثانية عيّن في شعبان سنة 1358هـ/ 1939م رئيسا للمجلس الشرعي الإستينافي الأعلى، وهو مرغم على ذلك، وعن ذلك يقول:

«وقد تطارحت على أقدامه الشريفة (أي السلطان) أن يعفيني من هذه الرياسة التي هي تكليف شاق ومسؤولية عظمى، وأنها تستغرق أوقاتي، وتشغلني عن دفاتر العلم والتأليف الذي هو الشغل الشاغل لبالي...؛ فلم يقبل مني شيئا من ذلك وألزمني به»[8].

لكن في المرحلة الأخيرة أصبحت مواقفه متباينة ومتناقضة حيث انتقد توقيع عقد الحماية على المغرب، وكذلك إصدار السلطات الفرنسية للظهير البربري سنة 1934م، وساند عريضة المطالبة بالاستقلال رغم أنه كان يرى بأن الوقت لم يحن بعد للاستقلال لعدم وجود قيادات وطنية، وقد يكون هذا الموقف هو الذي ألب عليه رجال الحركة الوطنية. قد يفهم من هذا أنه كان مناصرا لفرنسا وأحيانا أخرى للسلطان، إلا أنه في الواقع «تغيرت علاقة الحجوي بالسلطان وبسلطات الحماية منذ 1946، أصدر السلطان قرارا بإبعاده من القصر مع إبقائه في منصبه، ومنذ ذلك الحين تعرض للتهميش من لدن كل القوى الفاعلة في المجتمع المغربي. لكن المفارقة أنه حافظ على منصبه على الرغم من هذا التهميش، بل إنه تمسك به حتى بعد تنصيب ابن عرفة سلطانا على المغرب، حيث صدر اسمه في جريدة السعادة عدد 8843 ليوم 23 غشت 1953 ضمن من بايعوا ابن عرفة، ولهذه الأسباب تمّ عزله سنة 1955»[9].

ولما نال المغرب استقلاله، أعفي الحجوي من وظيفه، وصودرت ممتلكاته، ولزم الحجوي داره، إلى أن توفي بمستشفى بالرباط يوم ثاني ربيع الأول عام 1376هـ الموافق لـ8 أكتوبر 1956م، وحُمل في غده إلى مدينة فاس، ودفن بها بعد صلاة العصر، وبعد دفنه امتنع سكان الحي عن الصلاة في ذلك المحل الذي دفن فيه، لأنهم كانوا يرون أنه موالٍ للإدارة الاستعمارية الفرنسية؛ فأخرج من قبره ونقل إلى مكان مجهول[10]، وضمت خزانته إلى الخزانة العامة بالرباط، ويرمز لها اليوم في قسم المخطوطات بحرف الحاء.

2- مشروع الحجوي لإصلاح التعليم: حاول العديد من رواد الإصلاح بالمغرب إصلاح النظام التعليمي وتحسين أوضاع التعليم، ومن هؤلاء نذكر أحمد الصبيحي، وابن الأعرج السليماني، ومحمد الحجوي وغيرهم؛ لكن هذا الأخير اختلف عن غيره لأسباب عدة أهمها: درايته الواسعة بهذا القطاع بوصفه ممارسا لمهنة التدريس، وتوليه منصب مندوب المعارف لمدة تصل إلى عشرين سنة، وانطلاقا من مسؤوليته في هذا المنصب اكتسب حنكة في الميدان مكّنته من إخراج مشروعه الإصلاحي من العمل النظري إلى حيز التطبيق.

ألقى الحجوي عدة محاضرات داخل المغرب وخارجه داعيا فيها المغاربة إلى طلب العلم والسعي إليه، وكذلك لإصلاح أوضاع التعليم بالمغرب وبالوطن العربي ككل، كما قام

بنظم عدة قصائد في العلم وفضله، وغير ذلك من الطرق والمسالك التي سلكها للحث على نشر العلم والإقبال عليه، ووصل به حماسه للعلم ونشره بين جميع المغاربة إلى درجة اقتراحه على السلطان أن يخصص ربع الميزانية العامة للتعليم والصحة سيرا على خطى الأمم الراقية[11]، لأن العلم في نظره هو السبيل الوحيدة للنهوض والرقي؛ يقول في هذا الإطار: «إذ لا سبيل لأن نصير أمة معدودة من الأمم الحية إلا بتعميم القراءة والكتابة بين الحواضر والبوادي، وتعميم الابتدائي حتى يصير جل أفرادها رجالا ونساء يقرؤون ويكتبون باللسان العربي الفصيح»[12].

وعمل الحجوي منذ أن أصبح مندوبا في وزارة المعارف على تأسيس المدارس والإكثار منها، غير أن المغاربة لم يقبلوا هذه المدارس الجديدة، ولم يُقبلوا عليها لأنها من وجهة نظرهم وسيلة استعملتها فرنسا لنشر ثقافتها ومبادئها المعارضة للإسلام، وستمكنها من توطيد نفوذها الاستعماري بالمغرب، مما سيؤدي إلى فقدان المغاربة لهويتهم العربية الإسلامية؛ فحاول من خلال خطبه الدينية أن يُقنع المغاربة بإدخال أبنائهم إلى هذه المدارس الجديدة؛ لكنه وبعد محاولات توصل إلى أن إقناعهم لن يتم إلا بإدخال تعليم القرآن واللغة العربية إلى مناهج هذه المدارس، وذلك ما كان بالفعل، إذ «اطمأن الفكر العام على معتقدات أولادهم ودينهم وثقافة أسلافهم، وأيقنوا بأن دعايتنا لتعمير المدارس دعاية نصح وإرشاد، لا دعاية تضليل وإفساد...، وإني مطمئن إلى أن تلك الدعاية خاسرة لأن المغاربة عقلاء...، لا تغرهم الأقوال التي ليس وراءها أفعال، فضلا عن أقوال تخالفها الأفعال»[13]؛ فأقبل المغاربة بعد ذلك على هذه المدارس العصرية الإسلامية.

أدى هذا الاهتمام بالتعليم وتدريس العلوم الدينية في المدارس العصرية إلى إقبال متزايد من المغاربة عليها، ويتجلى ذلك من خلال الرسم المبياني الآتي[14]:

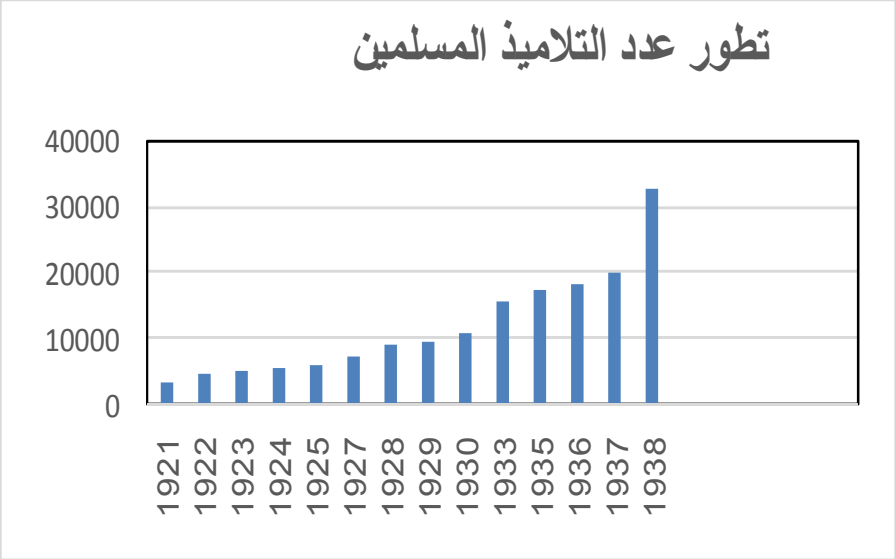

هكذا ومن خلال هذا البيان يتضح لنا مدى تزايد عدد التلاميذ المسلمين بهذه المدارس الجديدة التي أنشِئت، حيث وصلت هذه الزيادة ما بين 1921 و 1922 إلى 1587 تلميذ، وارتفع كذلك عدد تلاميذ المدارس الإسلامية، وسيتضح لنا ذلك من خلال الجدولين الآتيين اللذين يمثلان تطور هذه المدارس بين سنتي 1929 و1933م[15].

الجدول رقم (1): المدارس الإسلامية بتاريخ 10 يونيو 1929م.

نوع المدارس	عدد المدارس	عدد المدرسين	عدد المعينين	عدد التلاميذ
المدارس الثانوية	3	40	-	547
مدارس أبناء الأعيان	5	28	13	452
المدارس الصناعية	14	32	18	459
مدارس البنات	12	31	18	1915
المدارس الابتدائية	69	136	16	5892
المجموع	103	267	65	9765

الجدول رقم (2): المدارس الإسلامية بتاريخ 10 مارس 1933

نوع المدارس	عدد المدارس	عدد المدرسين	عدد المعينين	عدد التلاميذ
المدارس الثانوية	03	52	15	727
مدارس أبناء الأعيان	06	31	13	1281
المدارس الصناعية	17	37	35	796
مدارس البنات	18	45	57	3250
المدارس الابتدائية	65	223	76	9673
المجموع	109	388	196	15727

نستنتج من خلال هذين الجدولين التطور الحاصل في المدارس الإسلامية سواء تعلّق الأمر بعدد المدارس أو بعدد المدرّسين والمعينين أو بعدد التلاميذ، ولا شك أن الحجوي ساهم في هذا التطور عن طريق دعوته المتواصلة إلى نشر العلم، وحث الآباء على إدخال أبنائهم إلى هذه المدارس العصرية.

عمل الرجل على تعميم التعليم؛ فحاول نشره في المدن التي كانت نسبة التعليم بها لا تزال ضعيفة، وكذلك في البوادي والقرى التي يعمرها أغلب المغاربة، وتقل فيها نسبة المدارس[16]، ولم يختص الحجوي وحده بهذا الأمر، إذ يبدو أنه كان موضوعا يشغل بال مختلف النخب آنذاك؛ فمحمد بن عبد الكريم الخطابي على سبيل المثال، والذي كان معاصرا له، نبه هو الآخر إلى مسألة تعميم التعليم[17]، وإلى جانب تعميم نشره فقد سعى الحجوي أيضا إلى محاربة الأمية بجعل المدارس تفتح أبوابها ليلا أمام الذين لم يتمكنوا من التعلم في صغرهم، كما كان يطلب من التلاميذ أن يَعْمَلوا على تعليم آبائهم وأمهاتهم القراءة والكتابة في المنازل[18].

ولمّا زار الحجوي فرنسا انبهر من واقع التعليم في هذا البلد، وقال: «فالتعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء؛ فكل صبي بلغ سن التعليم لابد له أن يدخل المدرسة ويتعلم التعليم الإبتدائي، ثم من كان غنيا وأراد التعليم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا وليس له داعية للعلم؛ فلا بد أن يعرف صناعة من الصناعات، وهكذا ترى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى والغني والفقير، بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقعت فيه مجموع الأمم الغير المتمدنة كالمغرب الأقصى مثلا»[19]؛ لذا طلب من المغاربة الاقتداء بفرنسا، وجعل التعليم إجباريا؛ فعلى كل أب «أن يقدم ولده للتعليم، وهو ابن ست سنين فأقل؛ فيحصل على التعليم الابتدائي العربي في مدة أربع أو خمس سنين؛ فإذا

حصل عليه في هذه المدة مكنه أن يدخل للمدرسة الفرنسوية، ويحصل على العلوم العصرية، وتأهل لاجتناء ثمرات العلوم الحديثة»[20]، وخلال هذه المرحلة يُمنع على التلاميذ مزاولة أيّ عمل غير الدراسة[21] وتحصيل المعارف.

بالإضافة إلى هذه الإجراءات المتعلقة بنشر العلم وتعميمه، قدّم الحجوي مجموعة من الاقتراحات التي تمس المناهج البيداغوجية؛ فما هي وضعية اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة في هذا المشروع الإصلاحي للحجوي؟

3- تعلم اللغات والانفتاح على العلوم الحديثة في إصلاح الحجوي: دعا الحجوي إلى ضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية وتعلّمها، لأنها هي السبيل إلى العلوم الحديثة، وكان اهتمامه باللغة الفرنسية أكثر من اهتمامه بباقي اللغات، ويظهر لنا ذلك بوضوح من خلال الإقتراح الذي قدمه لإصلاح التعليم الثانوي، إذ خصص لتعلمها ثمان ساعات في الأسبوع مثلها مثل العربية، على عكس اللغة الإنجليزية التي لم يخصص لها إلا ثلاث ساعات في الأسبوع.

وقد جعل من تعلم اللغات الأجنبية ضرورة ملحة، لأنها ستمكننا من الخروج من حالة العزلة، والانفتاح على الدول المتقدمة، ومعرفة ما يجري عند غيرنا من الأمم، كما أن اللغات الأجنبية هي شرط أساسي للأخذ بالعلوم الحديثة، يقول: «وكيف لنا بالتوصل إلى العلوم الرياضية والطبيعية التي صارت قوام حياة الأمم إلا بواسطة لغة أجنبية لفقد العارفين بهذه العلوم عندنا، وفقد المؤلفات العربية في هذه الفنون، بل لا يتيسر ترقية التجارة والفلاحة والصناعة إلا بمعرفة لغة أجنبية؛ فلا سبيل إلى هذه العلوم التي هي المقصود بالرقي والتمدن إلا بمعرفة اللغة الأجنبية»[22]؛ فحسب الحجوي لا سبيل إلى الرقي والتطور إلا عن طريق إتقان اللغات الأجنبية، لذلك وجب تعلمها، وقد سار في نفس الاتجاه الوزير عبد الله الفاسي[23] الذي أولى أهمية كبيرة للغة الفرنسية حيث يقول: "ويكفي عنوانا على رفعة قدر هذه اللغة أنها لسان السياسة، وعليها المدار عندهم... والمعول"[24]. ذلك أن الأعيان المغاربة ارتأوا أن مصلحة أطفالهم ومستقبلهم مرتبطة بشكل وطيد بالتكوين والشهادات التي تمنحها المدارس الفرنسية، مع ما يحمله ذلك من الانبهار بثقافة ولغة المستعمر، وتوفير سبل الحصول على مناصب عليا داخل البلاد.

اهتمام الحجوي باللغات الأجنبية لا ينبغي أن يُفهم منه أنه أهمل اللغة العربية وهمّشها؛ فتعلمها دعت إليه الحاجة والضرورة، نظرا لعدم وجود مغاربة عارفين بالعلوم الحديثة، بل وانعدام المؤلفات العربية فيها؛ لذا وجب تعلم اللغات للاطلاع على المؤلفات

التي تُمكّن من الوصول إلى هذه العلوم؛ فقد واكب هذا الاهتمام باللغات الأجنبية اهتمام أيضا باللغة العربية: «وإن من جملة الأبواب التي يجب علينا إدخال النهضة إليها وسريان ماء الحياة فيها، وتعريف الأمة بما اعتراها، علومنا الدينية والعربية لتصل إلى النهوض والرقي إلا منها»[25].

وفي إطار اهتمام الحجوي باللغة العربية نجد أن علال الفاسي قد سلك نفس المنحى مع اختلاف في بعض الجوانب، إذ قام بإحصاء اللغات المدرسية التي أنشأتها سلطات الحماية، من مدارس فرنسية عربية، ومدارس فرنسية بربرية، ومدارس خاصة بأبناء الأعيان...، وسجل الحضور الضعيف للغة العربية في جميع المؤسسات التعليمية باستثناء المدارس القرآنية والجامعة الإسلامية التقليدية، بسبب هيمنة اللغات الأوروبية التي حظيت بوضع اعتباري جعلها لغات التعليم، وقد أعرب عن تحفظاته على هذا الوضع، وأبدى استنكاره للتهميش الذي اعترى اللغة العربية، وذلك لسببين أساسيين:

- الأول عملي: يتمثل في كون تلاميذ المدارس القرآنية لن يتمكنوا من متابعة دراساتهم الثانوية لجهلهم اللغة الفرنسية.
- الثاني ثقافي: ويتجلى في الاستلاب الذي يمكن أن يقع ضحيته التلاميذ المغاربة الذين يتلقون دراستهم باللغة الفرنسية[26].

عموما، لا يعتبر علال الفاسي تنوع اللغات في نظام دراسي ما أمرا مُضرّا بمستقبل التلاميذ فحسب، بل ويعتبره مضرا أيضا بمستقبل ثقافة الوطن، ويستدل على ذلك بحالة بعض بلدان المشرق العربي، دون أن يحددها بالضبط، إذ أن التداخل بين تيارات الفكر الغربي داخل تلك الدول نتج عنه نخبة هجينة ينطوي تكوينها على الكثير من المغالطات التاريخية بالمقارنة مع راهنية بلدانها أو حضارتها الأصلية، ولتجنب هذا يؤكد علال الفاسي على أن لغة التعليم بالمغرب يجب أن تكون واحدة ووحيدة، وهي اللغة العربية[27].

إن المشكل الذي يثيره علال الفاسي يمثل نقطة مشتركة بين العديد من البلدان التي خضعت للإمبريالية؛ ففي كل الأزمنة والبلدان حلت لغة المستعمِر محل لغة الدولة المستعمَرَة أو على الأقل أصبحت منافسة لها، وهذا ما يفسر موقف علال الفاسي وتشبّثه بالعربية لكونها لغة معبرة عن هوية الشعب المغربي في كفاحه ضد كل أنواع الاستلاب والتبعية، وتبرز في جميع البلدان مشكلة العلاقة بين اللغة الأم ولغة المدرسة، بين اللغة المستعملة داخل العائلة وتلك التي توظف في المؤسسة التعليمية[28].

وبالحديث عن المشرق العربي كان محمد عبده قد أوضح أن اللغة الأجنبية هي وسيلة لتحصيل ما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والأفكار، التي ربما لا تكون متوفرة في اللغة الوطنية؛ فطالب تعلم اللغة الفرنسية لا يعد مصيبا في تعلمها[29]، لكن هي شرط أساسي للأخذ بالعلوم الحديثة، مما يجعل موقفه هذا يتوافق مع الموقف الذي عبر عنه الحجوي. ويأخذ على الشيخ محمد عبده أنه عاب على المسلمين إرسال أولادهم إلى مدارس أجنبية طمعًا منهم- كما يقول الشيخ- في تعليمهم علومًا؛ ظنًّا في نفعها خلال معيشتهم، أو تحصيلهم بعض اللغات التي يرونها ضرورية لمستقبل حياتهم، وكأنه يقول: إنه لا ضرورة من تعليم اللغات في الوقت الذي تعلم هو نفسه اللغة الفرنسية، ورأى أن تعلُّمها شيء ضروري؛ فلكي تأمَن عدوَّك لا بد أن تعرف لغته؛ كي تعرف كيفية تفكيره، وقد برر الشيخ محمد عبده موقفه هذا بالخوف على الدين، وأن دخول هؤلاء التلاميذ تلك المدارس يمثِّل خطرًا على العقيدة[30].

عموما بالموازاة مع دعوة الحجوي إلى تعلم اللغات الأجنبية اهتم كذلك باللغة العربية، وطالب بتطويرها حسب مقتضيات العصر ومواكبة المستجدات لتصبح لغة حية وعلمية مؤهلة لتلقين العلوم العصرية، ويقبل عليها المغاربة ولا ينفروا منها، ويزول ما بداخلهم من التقزز والنفور منها، وطالب أيضا بالاهتمام بالترجمة، خاصة ترجمة الكتب العلمية إلى العربية، حتى يتمكن المغاربة من الاطلاع عليها؛ فمن العار أن يخترع غيرنا أشياء جديدة بينما نعجز نحن حتى عن إعطائها أسماء معينة؛ فندخلها بأسمائها الأعجمية إلى لغتنا العربية دون تحوير أو تعديل فيها، ودون إخضاعها لمقاييس اللغة وأوزانها، لذلك وجب علينا الاقتداء بأسلافنا العباسيين والأمويين في الأندلس، الذين ترجموا علوم اليونان والرومان، والاقتداء أيضا ببعض المصريين كالطهطاوي ورشيد رضا وغيرهما، إذ قاموا بترجمة علوم أوروبا الحديثة ونقلوها إلى اللغة العربية التي جعلوا منها لغة حية[31]. بشكل عام فقد جمع الرجل بين تطوير اللغة العربية وضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية، وبهذا فإنه يتوافق في الرؤية مع الأعرج السليماني الذي سلك طريقا وسطا بين التعريب وتعلم لغات أجنبية[32]، وهو نفس الاتجاه الذي سار فيه سعيد حجي مع بعض الاختلافات؛ فقد دعا إلى تعلم اللغات الأجنبية بقوله: "والذي يستطيع أن يدرس النهضة العربية ودعائمها، يجد هناك صورة أخرى للاستفادة من اللغات الأجنبية، هي غير الطريقة المتبعة بالمغرب، وذلك بالتمكن أولا من اللغة العربية بواسطة الثقافة القديمة، ودراسة لغة أجنبية دراسة

استفادة في ناحية من النواحي العلمية أو الأدبية، لا دراسة تخصيص واعتبار لتلك اللغة الأجنبية لغة أصيلة للمتكلم بالعربية"[33].

وكان الحجوي يدعو أيضا إلى ضرورة الاهتمام بالعلوم العصرية الرياضية منها والطبيعية، القادرة على إخراج المغرب من وضعية الركود والجمود؛ فانتقد في هذا الإطار المواقف المتحجرة لبعض العلماء الذين كانوا يرفضون كل تحديث أو تجديد؛ لذلك كان ينبه المغاربة قائلا: «استيقظوا من نومكم، واعلموا أنكم في زمن ظهرت فيه أثار العلم مخترعات...، وأن علماء الطبيعة بالعجب العجاب... غاصوا في السماء وحلقوا في الهواء...، ودارو حول الأرض في بضعة عشر يوما...، وهذا كله إن أردتم أن تذكروه؛ فما عليكم إلا أن تأتوه من بابه، وهو تحصيل العلوم الرياضية والطبيعية»[34]؛ فالاهتمام بالعلوم الحديثة، والإقبال عليها هو السبيل إلى الرقي ومواكبة ما وصل إليه الغرب.

لقيت هذه الإصلاحات التي تم اقتراحها من قِبل الحجوي في إطار المجلس التحسيني معارضة شديدة، بسبب الصراع القائم بين دعاة الإصلاح والمحافظين، لذا كان مصيرها الفشل، وحول هذا الأمر يقول: «كما أن الرأي العام كان ضدي في تنظيم القرويين وإحداث نظامها، وكان ألذ الأعداء لنظامها علماؤها بالخصوص، وبعدما ألفت نظام سنة 1332هـ قاموا ضدي، وتقوى بهم حزب كان في الإقامة العامة؛ فكان ذلك سبب إخفاق المشروع، وكان سبب استعفائي من الوظيف الأول، ولما رجعت للوظيف ثانيا لم آل جهدا حتى تغلبت على الفكر العام وعلى فكر رجال المخزن حتى شرع لها نظام آخر»[35].

ولم يذكر لنا الحجوي أسماء هؤلاء المعارضين الذين كانوا يوهمون السلطان بأن هذه الإصلاحات هي من الكفر والردّة، ولا توافق الشرع الإسلامي، ولكن عندما تحدث عن الإصلاحات الثانية ذكر بأن الفقيه المعمري خليفة رئيس التشريفات كان من أشد المعارضين لمشروعه[36]، وقد يكون الصدر الأعظم المقري من معارضيه كذلك، وإنْ كان الحجوي لم يذكره غير أننا نستشف ذلك من خلال المجادلات التي كانت تدور بينهم؛ بالإضافة إلى علماء فاس المتشبثين بالتقليد والرافضين للتغيير والتحديث، لأن الإصلاح سيكون فيه مساس بالامتيازات التي يتمتعون بها؛ فأدى هذا الفشل إلى استعفاء الرجل من وظيفته بوصفه نائبا للصدارة العظمى في العلوم والمعارف.

وبهذا فإن أهم فكرة يمكن الخروج بها هي أن الرجل استوعب المرحلة جيدا مما جعله من رواد الاتجاه التحديثي المنفتح على الغرب، بل على الحماية ذاتها، وهو في الوقت نفسه متشبث بالأصول الإسلامية، ومنتقد أصحاب الدعوات التغريبية كقاسم أمين والطاهر

الحداد، إذ عمل على الاقتباس من الغرب ما هو موافق لعوائدنا ودیننا وترك كل ما يخالف ذلك.

خاتمة: شكل التعليم إحدى أهم القضايا التي اهتم بها رواد الإصلاح بالمغرب من أجل الخروج من الوضعية التي كان يعيشها البلد، وتحقيق نهضة فكرية على غرار ما كان في عدد من بلدان المشرق العربي، وكانت لغة التدريس موضوع نقاش وسجال بين رواد الفكر المغربي طوال القرن العشرين، وعموما يمكن التميز بين اتجاهيين أساسيين:

- الأول: وهو الاتجاه المحافظ الذي دعا إلى الاقتصار على اللغة العربية والنفور من اللغات الأجنبية بدعوى أنها قد تفقد المغاربة أصالتهم الوطنية والدينية كما واجه هذا التيار كل المستجدات والتحديثات القادمة مع الإمبريالية؛ فاعتبرها وسيلة من أجل التوغل أكثر في البلاد، واستمالة المغاربة إلى صفها مما يشكل استلابا ثقافيا للمغاربة.

- الاتجاه الثاني: وهو الاتجاه الليبرالي الذي لم ير أي مانع في أخذ المستجدات القادمة مع الحماية، ومن ذلك لغة المستعمر التي اعتبرها وسيلة أساسية من أجل الأخذ بالعلوم الحديثة ومستجدات العصر، نظرا لقصور اللغة العربية عن ذلك بسبب الركود الذي اعتراها، وعدم وجود مؤلفات باللغة العربية في العلوم الحديثة؛ فشكلت اللغات الأجنبية شرطا أساسيا للأخذ بهذه العلوم.

وبين هذا وذلك برز تيار أخر وهو تيار توافقي جمع بين التيارين؛ فدعا إلى الأخذ بالتحديثات التي أقامتها سلطات الحماية، لكن دون الانسلاخ من الهوية المغربية الإسلامية، وضرورة الحفاظ عليها، ومن ذلك لغة التدريس؛ فقد رأى بضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية لكن دون الابتعاد أو تهميش اللغة العربية، وشكل الانفتاح على اللغات الغربية ضرورة ملحة يستدعيها الأخذ بالعلوم التي وصل إليها الغرب مع ضرورة الاجتهاد وتأليف مؤلفات عربية فيها، وليس من باب التقليد الأعمى للأجنبي.

يبدو أن هذا السجال الفكري الذي عرفه المغرب وباقي البلاد العربية حول لغة التدريس خلال القرن الماضي لازال قائما إلى اليوم، بل وقد أصبح يطرح اليوم بشكل أكثر إلحاحا.

الهوامش:

1 - الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة العلمية. المدينة المنورة 1396 هـ، ط 1، ج 2، ص:379.

2- نفسه، ص: 378.

3- ألقى الحجوي محاضرة في كيفية النهوض بالتجارة: وهي "مستقبل تجارة المغاربة" وقد طبعت بتونس، محفوظة بالخزانة العامة بالرباط، ح115، 118 و132 .

4 - الحجوي: الفكر السامي. م. س. ص384.

5- نفسه، ص380.

6- محمد حجي: معلمة المغرب،مادة الحجوي. الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا 1998، ج10 ص 3337.

7- الحجوي: الفكر السامي، م. س. ص 386.

8- الحجوي: م. خ. ع.. ح 127، ص.269

9- كريم الجيلالي: "محمد بن الحسن الحجوي النهضة والكبوة"، مجلة المناهل، عدد مزدوج 93-94، أسئلة الإصلاح في المغرب الحديث، ص 128

10- القيطوني: معجم المطبوعات المغربية نقلا عن بدر المقري: خطط المغرب الشرقي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2006، ط1، ص: 132.

11- الحجوي: ح. خ. ع. ح 127. ص: 18.

12- الحجوي: الفكر السامي. م. س. ج II. ص: 396.

13- الحجوي: المعارف في المغرب وجهود الحكومة. م. خ .ع، ح 199. ص:2.

14- بنعدادة: الفكر الإصلاحي في عهد الحماية. م س. ص: 166.

15- بنعدادة: الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، م. س. ص: 169 - 170.

16- الحجوي: تقاييد في شأن التعليم، م. خ. ع. ح. 127. ص: 185.

17- عبد الرحمان الطيبي، الحسين الإدريسي: التربية والتعليم في برنامج محمد بن عبد الكريم الخطابي، دار أبي رقراق، للطباعة والنشر،2014. ص: 140.

18- الحجوي: المعارف في المغرب وجهود الحكومة. م. س. ص: 2.

19- الحجوي: الرحلة الأوروبية. م. خ. ع. ح. 115. ص: 158.

20- الحجوي: محاضرة في إصلاح التعليم العربي. م. خ. ع. ح. 115. ص: 482.

21- ويلاحظ أن هذا هو الإجراء الذي أقدمت عليه الحكومة المغربية مؤخرا من خلال تخصيص دعم مالي للأسر مقابل ترك أبنائها يتفرغون للدراسة، ويلزمون الفصول الدراسية.

22- الحجوي: إصلاح التعليم العربي. م. س. ص: 478.

23- عبد الله بن عبد السلام الفهري الفاسي 24 أكتوبر1871 - 26 ماي1930 وزير وقاضي وكاتب وشاعر مغربي.

24- اليزيدي، محمد، مقاومة المغاربة للمد اللغوي والثقافي الفرنسي، ضمن " أعمال ندوة المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية،2005، ص 455

25- الحجوي: إصلاح التعليم العربي. م. س. ص: 475.

26- علال الفاسي، النقد الذاتي، المطبعة العالمية، 1952، ص. 350

27- علال الفاسي، النقد الذاتي، م. س.، ص. 351

28 -Nadel, J., 1976, «Théories du langage, rôle du milieu et différences individuelles,«Bulletin de Psychologie ,Vol. XXIX, N° 1-3, p. 3-9.

29- محمد عبده: المعارف، جريدة الوقائع المصرية، ع 997، 28 ديسمبر 1880، نقلا عن: محمد فوزي عبد المقصود: الفكرالتربوي للأستاذ الإمام محمد عبده والياته في تطوير التعليم، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، 2006. ص 152

30- فاطمة عبدالرحمن، مجلة حصاد الفكر، عدد 161، سبتمبر 2005، ص 75.

31- الحجوي: مسامرة في موضوع مكتبة الرباط ومدرستها العليا بالرباط 1343. م.خ.ع.ح 115. ص: 452 - 453.

32- عثمان اشقرى: في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث. منشورات عيون المقالات،الدار البيضاء،1990، ص 145.

33- ابوبكر القادري: سعيد حجي (1912-1942): دراسة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي وبعض إنتاجه. دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982، ص. 65.

34- الحجوي: خطب في التربية والتعليم. م. خ. ع. ح 156.

35- نفسه. ص 3.

36- الحجوي: حالة القرويين في شعبان 1348 هـ .م. خ. ع. ح 128. ص:102.